وكان علماء التوراة حتى الآن في ريب من وجود الضأن الجبلي في بلاد العرب وما يجاورها فان بعضهم فسَّر لفظة زمر العبرانية (تث ١٤ : ٥) بالضأن الجبلي واعتُرض على ذلك بان الضأن الجبلي لم يكن معروفاً عند العبرانيين ولا وجود لهُ في فلسطين وسينا والحقيقة انهُ معروفٌ عند العرب ولا بد من انهُ كان معروفاً عند العبرانيين ايضاً وهو موجودٌ في جبال مصر الشرقية ولا مانع من وجوده في الجهة الثانية من البحر الاحمر

السنع — ذكرت في احدى مقالاتي السابقة اني لم اسمع هذه اللفظة في السودان وقد علمت الآن من مصدر يوثق بهِ ان لفظة السنع معروفة عند عرب كردوفان ويطلقونها على الحيوان الذي ذكرتهُ وهو ليس من خرافات العرب بل حيوانٌ قائمٌ بنفسهِ يوجد واحد منهُ في حديقة الجيزة على مقربة من الفهد والنمر الاسود الدكتور امين المعلوف

دولة آل عثمان

السلطان بايزيد الثاني

ختمنا الكلام في الفصل السابق بوفاة السلطان محمد الفاتح وقد سقطت كلمة في ذلك الفصل اخلَّت بالمعنى وهي كلمة مستعمرات قبل كلمة جنوي والبندقية في السطر ١٣ من الصفحة ١٦٦ فانهُ كان لهما مستعمرات على سواحل البحر الاسود

ذكر ابن اياس وفاة السلطان محمَّد الفاتح في أخبار سنة ٨٨٦ قال " وفي ربيع الاول جاءت الاخبار بوفاة السلطان المعظم الفخم المجاهد المغازي ملك الروم وصاحب القسطنطينية العظمى .... وكان ملكاً جليلاً عظيماً ساد على بني عثمان كلهم وانتشر ذكرهُ بالعدل في سائر الآفاق وحاز الفضل والعلم والكرم الزائد وسعة المال وكثرة الجيوش والاستيلاء على الاقاليم الكثيرة وفتح الكثير من حصونها وقلاعها وكان نائب ملك مملكة الروم في حياة ابيهِ ثم استقل بها من بعدهِ وسكن فيهِ مدة طويلة تزيد على احدى وثلاثين سنة ومولدهُ بعد الاربعين والثمانمئة ولما مات تولى بعدهُ ولدهُ ابو يزيد يلدوم الموجود الى تاريخهِ فلما سمع ذلك السلطان (اي الملك الاشرف قايتباي صاحب مصر) اظهر الحزن والاسف عليهِ

ومن يطالع تاريخ ابن اياس يجد انهُ لم يذكر احداً من سلاطين آل عثمان بهذا التبجيل . والظاهر انهُ جرى على المثل العامي القائل ابعدوا حتى احبكم واقربوا حتى امسكم فان

السلطان سليماً كان اعظم من السلطان محمد الفاتح ومع ذلك لم يذكرهُ بالتبجيل بل اكثر من لومهِ وتعنيفهِ كما سيجيء . اوان ما ذكر عن وفاة السلطان محمد الفاتح مقحم في تاريخ ابن اياس

ولم يكد السلطان بايزيد يجلس على سرير الملك حتى ثار اخوهُ عليهِ وقصد مدينة برصي ودخلها عنوةً لقصدهِ السلطان بايزيد اليها وحاربهُ وتغلب عليهِ فالتجأ الى البلاد المصرية . قال ابن اياس في اخبار سنة ٨٨٦ هـ وفي جمادى الآخرة جاءت الاخبار من حلب من عند الاتابكي ازبك بان الجام بن عثمان ملك الروم قد وقع بينهُ وبين اخيهِ ابي يزيد وان الجام وصل الى اطراف بلاد السلطان وبعث يستأذن في الدخول الى حلب . فعاد الامر من السلطان للاتابكي ازبك بان يرسلهُ الى القاهرة في قليل من عسكرهِ واستعد للاقائهِ . . . وفي شعبان خرج الصاحب خشقدم الزمام للاقاة الجام بن عثمان ومدَّ لهُ السماط حافلة ببلبيس والخانكاه ثم لاقتهُ الامراء المقدمون والعسكر وروُوس النوب والحجاب الى المرج والزيات فسار في موكب حافل حتى طلع الى القلعة من بين الترب فاقام لهُ السلطان الموكب بالحوش . فلما مثل بين يدي السلطان وهو جالس على الدكَّة تحرَّك ولم يتم لهُ ثم خلع عليهِ كاملية بسمور حافلة واركبهُ فرساً خاصاً من مراكبهِ بسرج ذهب وكنبوش زركش[1] ونزل من القلعة في موكب حافل وقدامهُ الامراء وروُوس النوب وكان لهُ يوم مشهود . وقد قيل في المعنى

يا ايها الملك الهمام ومن لهُ اسدُ الفلا تأتي اليهِ ملجمه
قد فاق قدرك في الملوك تعاظماً مذ صيَّرتك بين يديك تعانق الجمجمه

(وكانوا يسمون هذا الامير جاماً وجمجمة) وانزلوهُ في دار ابن جلود كاتب المماليك التي في ثم الطور . وحضر معهُ والدتهُ واولادهُ وعيالهُ وقد فرَّ من اخيهِ ابي يزيد خوفاً على نفسهِ من القتل فالتجأ الى سلطان مصر

ثم ذكر احتفال السلطان بالامير جام في اوقات مختلفة وقال انهُ سافر الى مكة مع ركب المحمل هو وامهُ وعيالهُ

وقال في حوادث سنة ٨٨٧ ان الحج وصل الى القاهرة في محرم ومعهُ الامير جام لكنهُ قلق من اقامتهِ في مصر وطلب التوجه الى بلادهِ ليحارب اخاهُ بجمع السلطان الامراء واستشارهم في ذلك ثم اذن لهُ في السفر الى بلادهِ على كره منهُ وكان ذلك عين الخطإ

---

(١) الكنبوش البردعة التي تجعل تحت سرج الفرس والزركش المحرر المنسوج بالفضة وقد كان الفرسان في القرون الوسطى يبذلون مبالغ كبيرة من الزركش على ظهور خيولهم تحت السرج فتكاد تغطي الفرس كلهُ وتقيهِ من الهجوم

ولجأ الامير جم اولاً الى فرسان مار يوحنا استحلب جزيرة رودس فابقوهُ عندهم اسيرًا ثم قتلهُ البابا اسكندر السادس ويقال ان اخاهُ السلطان بايزيد اعطى البابا ثلثمئة الف دوكا من اجل ذلك

ونشبت الحرب بين نائب حلب والسلطان بايزيد ويقول ابن اياس ان الدائرة دارت على عسكر ابن عثمان وكانت هذه الحركة اول الفتن مع ابن عثمان . الاَّ ان سلطان مصر اراد استرضاءهُ واشار عليهِ خواصهُ ان يرسل اليهِ هديةً تزيل هذه الوحشة فانصاع لكلامهم وعين الامير جاني بك حبيب ليذهب بالهديَّة الى ابن عثمان فتوجه اليهِ بحرًا من الاسكندريَّة وارسل السلطان معهُ تقليدًا من الخليفة بان يكون مقام السلطان على بلاد الروم وما سيفتحهُ الله على يدهِ من البلاد الكفرية وكتب اليهِ الخليفة ما يدعو الى اخماد الفتنة التي قامت بينهُ وبين السلطان . قال ابن اياس والذي استفاض بين الناس ان سبب هذه الفتنة بين السلطان وبين ابن عثمان ان بعض ملوك الهند ارسل الى ابن عثمان هدية حافلة على يد بعض تجار الهند فلما وصل الى جدَّة احتاط عليها نائب جدَّة واحضرها صحبتهُ الى السلطان وكان من جملة تلك الهدية خنجر قبضتهُ مرصعة بفصوص مثمنة فطمع السلطان في تلك الهدية واخذ الخنجر فلما بلغ ابن عثمان ذلك حنق وجاء عتب ذلك ان على دولات تراءى على ابن عثمان وشكى اليهِ من افعال السلطان وما يصدر منهُ فتعصَّب لعلي دولات وامدَّهُ بالعساكر فارسل السلطان الخنجر المذكور والهدية التي بعث بها ملك الهند وارسل يعتذر الى ابن عثمان عن ذلك بعد ان صار ما صار فكان كما قيل

جرى ما جرى جهرًا لدى الناس وانبسط وصار الى سرًّا يؤكد ما فرطْ
ومن ظن ان يمحو جليٌّ خفاؤهُ خفيٌّ اعتذار فهو في غاية الغلطْ

لكن ابن عثمان (اي السلطان بايزيد) لم يكف عن تدويخ اطراف الممالك المصرية فارسل نائب حلب يحثهُ سلطان مصر على الخروج لقتالهِ ثم قال ان جاني بك حبيب الذي ارسلهُ السلطان الى ابن عثمان عاد من سفارتهِ وخلا بالسلطان واخبرهُ عن احوال ابن عثمان وانهُ لم يرَ منهُ اقبالاً ولا اكرامهُ وانهُ غير راجع عن اذية عساكر مصر . فكثر القال والقيل بسبب ذلك ثم نشب القتال بين جنود حلب وجنود ابن عثمان فدارت الدائرة على جنود ابن عثمان وغنمت الجنود المصرية منهم غنائم كثيرة واسرت جماعة من امرائهم وغنمت مئة وعشرين سنجقًا وقطعت كثيرًا من الرؤوس وارسلتها الى مصر وكانت اكثر من مئتي رأس فلما وصلت اليها زينت القاهرة

وبعث السلطان بايزيد ستين سفينة حربيّة مشحونة بالسلاح لمقاتلة الجنود المصرية فعصفت بها الرياح واغرقتها . وتوالت الحروب بين الجنود المصرية والجنود العثمانية وكان النصر غالباً للجنود المصرية على ما رواهُ ابن اياس واخذت مدينة ادرنة بعد ان حصرتها ثلاثة اشهر

وقال في حوادث جمادى الاخرى من سنة ٨٩٣ وفيهِ قدم قاصد من عند داود باشا وزير ابن عثمان يشير على السلطان بان يبعث قاصداً الى ابن عثمان لعلهُ يكون الصلح فردَّ لهُ الجواب انهُ اذا اطلق تجار المماليك الذين عندهُ وبعث مفاتيح القلاع التي اخذها كانبناءُ في الصلح وارسلنا اليهِ قاصداً . ثم جرَّد السلطان جيوشاً جرارة لقتال ابن عثمان فوصلوا الى قيسارية واجتاحوها ونهبوا صدة من ضياعها واحرقوها

والظاهر ان الفوز لم يكن دائماً للجنود المصرية فقد ذكر ابن اياس في حوادث سنة ٨٩٦ ان السلطان جمع رجال دولتهِ وقال لهم ان ابن عثمان ليس براجع عن محاربة عسكر مصر وان احوال البلاد الحلبيّة قد فسدت وآلت الى الخراب والتجار منعوا ما كان يجلب الى مصر من الاصناف والمماليك الجلبان يرومون منيّ نفقة وان لم انفق عليهم شيئاً نهبوا مصر والقاهرة وحرقوا البيوت . ومتى رجع عسكر ابن عثمان الى البلاد الحلبيّة لا يخرج العسكر من مصر لقتالهِ الاَّ بعد ان انفق عليهم . ثم جعل يقسم بالله تعالى انهُ ما بقي في الخزائن شيء من المال وطلب ان يفرض على الاوقاف والاملاك التي بمصر والقاهرة اجرة سنة كاملة يستعين بها على خروج التجريدة . فسكت المجلس ساعة ثم قال القاضي الشافعي لعلَّ الله تعالى يكفيكم مؤنة ذلك . وقال القاضي المالكي ان اجرة سنة كاملة لثقل على الناس ولا يطيقون ذلك فان كان لا بدَّ من ذلك فلتفرض عليهم اجرة خمسة اشهر ..... ثم آل الامر الى ما قالهُ قاضي القضاة المالكي وانفضَّ المجلس

واسهب ابن اياس في وصف المظالم التي تجمت عن ذلك ثم قال في حوادث جمادى الاخرى من سنة ٨٩٦ انهُ حضر الى الابواب الشريفة قاصد من عند ابن عثمان وهو من اجلّ قضاتهِ وكان متولّي القضاء بمدينة بروسه واسمهُ الشيخ علي جلبي فلما صعد الى القلعة اكرمهُ السلطان وبالغ في تعظيمهِ جدّاً واحضر مفاتيح القلاع التي كان ابن عثمان قد استولى عليها فسلمها الى السلطان واشيع امر الصلح . واطلق السلطان الاسرى الذين كانوا مأسورين من عسكر ابن عثمان وكساهم واحسن اليهم فتوجهوا الى بلادهم صحبة القاصد

وجاء في التواريخ الافرنجية ان السلطان بايزيد انشأ اسطولاً قويّاً نازل اسطول البنادقة وتغلّب عليهِ وكان ذلك اول غلبة بحرية للعثمانيين وانهُ كان محبّاً للسلم غير ميّال الى

الفتوح فلم يضف الى مملكة آل عثمان الاَّ مدنًا قليلة من بلاد اليونان ولذلك خرج عليهِ الانكشاريَّة واضطروهُ ان يتنازل عن الملك لابنهِ سليم فتنازل وتوفي بعد ايام قليلة وذلك في ربيع الاول سنة ٩١٨ ولم يذكر تاريخ ابن اياس المطبوع خبر وفاتهِ لانهُ ناقص تاريخ ١٥ سنة

السلطان سليم الاول

هو اعظم سلاطين آل عثمان واشدهم بطشًا واوسعهم فتوحًا قتل اخويهِ لكي لا ينازعاهُ في الملك وقتل اولادهما ايضًا وزحف على بلاد الفرس وقتل خمسة واربعين الفًا من اهل الشيعة الذين على تخوم بلادهِ لكي لا يعاونوا الفرس عليهِ ونازل جيوش الفرس في وادي چال ديران فاثخن فيهم ودخل تبريز عنوة واستولى على خزائن صاحبها الشاه اسمعيل الصوفي وارسلها الى القسطنطينيَّة وكان قد دوخ ديار بكر وكردستان في طريقهِ الى بلاد ايران . ثم نشبت الحروب بينهُ وبين العساكر المصرية وقد فصَّلها ابن اياس تفصيلاً مسهبًا ولعلَّهُ تحامل على الجنود العثمانيَّة ولكنهُ لم يجانب ولا اخفى الحقائق فنعتمد عليهِ في تلخيص ما يلي لانهُ اكثرهُ من الحوادث التي شاهدها عيانًا قال ما خلاصتهُ

ويوم الخميس سلخ صفر من سنة ٩٢٢ اتى ساعيان بكتاب من نائب حلب فيهِ ان الشاه اسمعيل الصوفي ملك العراقين جمع من العسكر مالا يحصى وهم زاحفون على بلاد ابن عثمان وكان في سنة ٩٢٠ قد حصل بينهُ وبين سليم شاه ملك الروم واقعة مهولة وانكسر اسمعيل شاه فاستمرَّ من حين جرى لهُ ما جرى وهو في جمع العساكر واستعان بملوك التتار وزحف على آمد وقتل من كان فيها من العثمانيَّة واستخلصها من يد جماعة ابن عثمان . فلما طرق هذا الخبر مسامع السلطان (اي الملك الاشرف ابو النصر قانصوه الغوري) اجتمع بالامراء في الميدان وتشاوروا الى قرب الظهر وانفضَّ المجلس على تجريد جيش يقيم في حلب ويحرس البلاد الحلبيَّة . ثم جاءت الاخبار بان ابن عثمان كتب الى نائب حلب يقول لهُ انت والدي واسألك السماء والي ما زحفت على بلاد علي دولات الاَّ باذنك وهو الذي أثار الفتنة بين والدي والسلطان فايتباي حتى جرى بينهما ما جرى وهذا كان غاية الفساد في مملكتكم وكان قتلهُ عين الصواب . وان البلاد التي اخذتها من علي دولات اعيدها اليكم وجميع ما ترومونهُ ويريدهُ السُّلطان نعاونهُ . فبعث نائب حلب بهذا الكتاب الى السلطان قانصوه الغوري فاستبشر بالصلح

ومن رأي ابن اياس ان كتاب السلطان سليم ضرب من الحيلة والخداع اما السلطان

قانصوه الغوري فسار بالجيوش المصرية الى ان بلغ دمشق ووردت الاخبار منهُ في جمادى الاخرة انهُ دخل دمشق يوم الاثنين ثامن جمادى الاولى وكان معهُ الخليفة المتوكل على الله والقضاة الاربعة والجيش المصري كلهُ ويقال انهُ دخل في موكب لم يتفق للسلطان مثلهُ بعد الاشرف برسباي وزينت لهُ مدينة دمشق سبعة ايام ثم رحل عنها وسار الى حمص ومنها الى حماه فحلب ودخلها يوم الخميس عاشر جمادى الاخرى وكان لدخولهِ يوم مشهود فمشى الخليفة والقضاة امامهُ وحُملت القبة على رأسهِ حملها ملك الامراء خاير بك نائب حلب . وحال دخولهِ حضر من قبل سليم شاه بن عثمان ملك الروم قاضي عسكر يقال لهُ ركن الدين واحد الامراء واسمهُ قراجا باشا وقالا ان استاذهما فوّض اليهما امر الصلح وقال ان كل ما اختارهُ السلطان افعلهُ ولا تشاوراني . قال ابن اياس وكل هذا حيل وخداع حتى تبطل همة السلطان عن القتال . ثم ان قاضي ابن عثمان احضر فتاوى من علماء بلادهم وقد افتوا بقتل شاه اسمعيل الصوفي وان قتلهُ جائز شرعاً . وارسل ابن عثمان يقول للسلطان في كتابهِ انت والدي واسألك الدعاء وبعث اليهِ بالهدايا الفاخرة وطلب منهُ ان يرسل اليهِ سكراً وحلوى فارسل اليهِ مئة قنطار سكر وحلوى في طلب كبار . ثم انجلى الامر واتضح غرض السلطان سليم فانهُ قبض على رسول سلطان مصر الامير مغلباي ووضعهُ في الحديد . وكان السلطان قد بعث اليهِ بالامير كرتباي الاشرفي بهدية سنية تساوي عشرة آلاف دينار وخلع على قاضي عسكر ووزيرهِ قراجا باشا خلعاً سنيّة فلما وصل الامير كرتباي الى عينتاب بلغهُ ان ابن عثمان ابى الصلح وقبض على الامير مغلباي ووضعهُ في الحديد فرجع الى حلب واخبر السلطان بما بلغهُ وبان طلائع عسكر ابن عثمان وصلت الى عينتاب وملكت قلعة ملطية فاضطرب السلطان ورجالهُ واستعد للاقاتهِ واخيراً التقى الجيشان في مرج دابق قرب حلب في الخامس عشر من رجب وكان حول سلطان مصر اربعون مصحفاً في اكياس من حرير اصفر على رؤوس جماعة من الاشراف وفيها مصحف بخط الامام عثمان بن عفان وجماعة من الفقراء وهم خليفة السيد البدوي ومعهُ اعلام والسادة الاشراف القادرية ومعهم اعلام خضر وخليفة السيد احمد الرفاعي ومعهُ اعلام والشيخ عليف الدين خادم السيدة نفيسة باعلام سود . والمماليك الذين معهُ كانوا اسوداً لا يهابون الردى فهزموا عساكر ابن عثمان وغنموا منهم سبعة مدافع واخذوا المكاحل التي كانت على العجل ورماة البندق . وهمَّ السلطان سليم بالهرب وقد قتل من عسكرهِ اكثر من عشرة آلاف ولكن بلغ المماليك القرانصة ان السلطان قال للمماليك الجلبان لا تقاتلوا ابداً وخلوا المماليك القرانصة وحدهم فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال . ثم قتل الاتابكي سودون العجمي

وملك الامراء ميماي نائب الشام فانهزم جانب كبير من ميمنة العسكر ثم انهزم خاير بك نائب حلب فكسر الميسرة . وقيل ان خاير بك كان خائناً وسلمهُ مع ابن عثمان وهو اول من هرب من العسكر ونادى بانهزمة فبقي السلطان واقفاً تحت السنجق في نفر قليل من المماليك فشرع ينادي يا امراء هذا وقت نخوة هذا وقت النجدة فلم يسمع لهُ احد قولاً وصاروا يضحكون من حوله وهو يقول للفقراء ادعوا الله تبارك وتعالى بالنصر وهذا وقت دعائكم . وكان اليوم شديد الحر والنصر غضب الله فيهِ على عسكر مصر وغلَّت ايديهم عن القتال وقد قلت في هذه الواقعة هذه الابيات

لما التقى الجيشان مع سلطاننا في مرج دابق قال هل من مسعفر
فلهُ اجاب لسان حال قائلاً عرِّضت نفسك للبلا فاستهدف

ولما اضطربت الاحوال وتزايدت الاهوال خاف الامير قرا الزردكاش على السنجق السلطاني فانزلهُ وطواهُ واخفاهُ وتقدم الى السلطان وقال لهُ يا مولانا ان عسكر ابن عثمان قد ادركنا فانجُ بنفسك وادخل حلب . فلما تحقق السلطان ذلك اصابهُ فالج عطل شقهُ وارخى حنكهُ فطلب ماء فاتوهُ بهِ في طاسة من ذهب فشرب قليلاً والقت فرسهُ لكي يهرب فشبَّ خطوتين وانقلب عن الفرس الى الارض فاقام نحو درجة (اي اربع دقائق) وخرجت روحهُ من شدة قهرهِ . ولما اشيع موتهُ هجم عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان فقتلوا الامير بيبرس احد المتقدمين وجماعة من الخاصكية ممن كان حولهُ واما السلطان فلم يُعلم لهُ خبر ولا وقف لهُ على اثر ولا ظهرت جثتهُ بين القتلى . وفقد الصنجق العثماني ايضاً وزال ملك الاشرف الغوري في لمح البصر بعد ما تصرَّف في ملك مصر واعمالها والبلاد الشامية واعمالها خمس عشرة سنة تسعة اشهر وعشرين يوماً فانهُ ولي ملك مصر في مستهل شوال سنة ست وتسعمائة وتوفي في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وكان طويل القامة ابيض اللون مدور الوجه مشمم العينين جهوري الصوت مستدير اللحية لم يظهر بلحيته الشيب الا قليلاً وكان مهيباً جليلاً تملأ العيون طلعتهُ ولولا ظلمهُ وكثرة مصادراته الرعية لكان من خيار ملوك الجراكسة بل من خيار ملوك مصر قاطبةً وكان ينزل يوم الاثنين والخميس الى الخوش السلطاني ويوم السبت والثلاثاء الى الميدان فينزل من السبع حضرات وقدامهُ طوالتان من الخيل بسروج ذهب وكنابيش زركش وكان يلبس في اصابعهِ الخواتم الياقوت والفيروز والزمرد والالماس وعين الهر وكان مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والعنبر ترفقاً في ملبسهِ يحب رؤية الازهار والفواكه مولعاً

بفرس الاشجار وحب الرياض وسماع الاطيار المغردة فهماً سيء الاكل والشرب . وكان لهُ محاسن ومساوئ لكن مساوئهُ اكثر من محاسنهِ . ومن محاسنهِ انهُ كان رضيَّ الخلق يملك نفسهُ عند الغضب شديد الاعتقاد بالفقراء والصالحين ويعرف اقدار الناس ويفهم الشعر ويحب سماع الالآت والغناء وكان مغرماً بقراءة التواريخ والسير ودواوين الاشعار ويحب المزح ولم يكن عندهُ شهم ولا كبر نفس

وذكر ابن اياس اسماء الامراء الذين قتلوا او اسروا من الجيش المصري وقال ان المماليك الجلبان لم يقاتلوا فلم يسلُّوا سيفاً ولا هزوا رمحاً بل وقفوا كأنهم خشب مسندة وان ابن عثمان (السلطان سليم) غنم كل ما كان في معسكر السلطان الغوري ثم دخل حلب وامتلكها وان اهل حلب قتلوا من لجأ اليهم من العسكر المصري لانهم كانوا ناقمين على المماليك السلطانية لتبيح فعالهم فهرب من نجا منهم الى دمشق فوصلوها وهم في اسوإ حال . ثم قال اما الخليفة امير المؤمنين وثلاثة من القضاة وهم الشافعي والمالكي والحنبلي فمضوا الى ابن عثمان وهو في ميدان حلب فاكرم امير المؤمنين واجلسهُ بين يديهِ وانعم عليهِ بمال كثير وردَّهُ الى حلب اما القضاة فقيل انهُ ويخهم وقال لهم انكم تأخذون الرشوة على الاحكام الشرعية وتسعون بالمال حتى تتولوا القضاء وما منكم من يرشد الى الخير لانكم لم تمنعوا سلطانكم عن المظالم . واخبرني من رأى سليم شاه ابن عثمان انهُ بربوع القامة واسع الصدر اقنص العنق مكرفس الاكتاف واسع العينين دري اللون وافر الانف على جسد حليق اللحية ليس لهُ غير الشاربين كبير الرأس عمامتهُ صغيرة دون عمائم امرائهِ . فلما جاء الى حلب سلمهُ اياها اهلها من غير نزاع وهرب قانصوه الاشرفي نائب القلعة وتوجه الى الشام مع العسكر وترك ابوابها مفتوحة فدخلها ابن عثمان ورأى فيها ما ادهشهُ من مال وسلاح وتحف ورأى من السروج الذهب والبلور والنجم المرصعة والنصوص المجنبة والسيوف المسقطة بالذهب والزردیات والخوذ الفاخرة وغير ذلك من السلاح ما لم ير مثلهُ

ثم بيَّن ان بعض اخصاء الغوري كانوا معهُ ظاهراً ومع ابن عثمان باطناً فكانوا يكاتبونهُ ويكشفون لهُ عورات الغوري واولهم خاير بك نائب حلب فخلع عليهِ ابن عثمان وسماهُ خاين بك لانهُ خان مولاهُ ولبس زي التراكمة العمامة المدوَّرة والدلامة وقص لحيتهُ

ولا يسعنا تلخيص كل ما ذكرهُ ابن اياس عن هذه الواقعة وما يليها لان وصفهُ سهب جداً وفيهِ كلام كثير لغيره كما يظهر من اسلوبهِ فاجتزئنا بما تقدم . ووصل فل العسكر المصري الى القاهرة وهم في اسوإ حال من العري والجوع والضعف ولما وصل الامراء الذين نجوا اجمع

رأيهم على تمليك طومان باي الدوادار وحلفوا لهُ انهم لا يخونونهُ وسمي بالملك الاشرف ابي النصر طومان باي وهو السابع والاربعون من ملوك الترك واولادهم في الديار المصرية والحادي والعشرون من ملوك الجراكسة واولادهم وكان اصلهُ من كتابية الاشرف قايتباي اشتراهُ الملك الاشرف قانصوه الغوري ولهذا يدعى طومان باي بن قانصوه . وبايعهُ ابو الخليفة وكان نائباً عنهُ وقاضي الحنفية ونواب القضاة الثلاثة الآخرين ومن حضر من الامراء واحضروا لهُ خلعة السلطنة وهي الجبَّة السوداء والعمامة السوداء والسيف البدوي وافيض عليهِ شعار الملك وقبَّل الامراء الارض قدامهُ ونودي باسمهِ في القاهرة وفرح الناس بهِ لانهُ كان محبَّباً للعوام لين الجانب قليل الاذى غير متكبر ولا متجبر

وجاءت الاخبار الى مصر بان السلطان سليماً زحف على الديار الشامية واستلكها . ولخَّص الامير حيدر ذلك في تاريخهِ لكنهُ لم يوردهُ بعبارة المعاصرين كما اوردهُ ابن اياس فقال ما خلاصتهُ

كانت الديار الشامية في حكم ملوك مصر الشراكسة وكان خير بك نائباً في حلب والغزالي في دمشق (جان بردي الغزالي) فكاتبهما السلطان سليم ووعدهما انهُ اذا انتصر على الشراكسة يوليهما على الايالات المصرية والشامية ولما التقت العساكر في مرج دابق امر السلطان الاشرف خير بك والغزالي ان يقودا عسكرهُ ويقدما الى الحرب وكان ابن معن وامراء جبل الشوف (بلبنان) مع خير بك والغزالي فقال الامير فخر الدين (المعني) لمن معهُ دعونا ننفرد وننظر لمن يكون النصر فنقاتل معهُ ولما اضطرمت نار الحرب فرَّ الغزالي وخير بك الى ناحية عسكر السلطان سليم بمن معهم من الديار الشامية . ومن شدة ما جرى على الغوري من الضيق والغضب بسبب خيانة النواب لهُ ضرب نفسهُ بخنجر فقتل وقيل ان احد العساكر قتلهُ . واقام السلطان سليم في حلب الى ان رتب امورها وخُطب باسمهِ في الجوامع ثم ملك حماه وحمص وسار بالعسكر الى دمشق فخرج اهلها لتلقائهِ فاعطاهم الامان وكتب بالامان الى امراء جبل لبنان فحضر اليهِ الامير فخر الدين المعني والامير جمال الدين اليمني والامير حسان التركماني وغيرهم لكن الامراء التنوخيين لم يحضروا لانهم كانوا من احلاف الشراكسة فانزَّ الامير فخر الدين على بلاد الشوف والامير جمال الدين على بلاد الغرب والامير حسان على بلاد كسروان وبلاد جبيل ورتب عليهم مالاً قليلاً

ثم اسهب ابن اياس في وصف ما لقيهُ السلطان سليم من المماليك في الديار المصرية الى ان استتب لهُ الامر فيها وسنلخص ذلك في الجزء الثاني